٢٢

والتاريخ أيضاً له عقل!!

أحاول أن أذكر نفسى باستمرار أن التاريخ له عقل.. وإذا تصورنا أن التاريخ مصادفات تتدفق هكذا بلا وعى.. فسنقع في خطأ كبير.. وإذا كان التاريخ بلا عقل وتحكمه مصادفات فإن كل شيء وارد والتعداد والتفكير والتأهب والترقب وكل هذا لا داعى له لأنه مجهول ينقض علينا من حيث لا ندرى ويحدث أثره ويغير حياتنا جميعاً كما يشاء كأنه عاصفة منقطعة.

وفي واقع الأمر التاريخ له عقل وببساطة لأن التاريخ في النهاية هو صراع وسباق الأمم والمجتمعات إلى ما تتصوره مصالحها وأمنها وحريتها وتفوقها وهذا ما يصنع التاريخ.. وإذا كان هذا مجال صنع التاريخ فإن الذي يحركه القدرة والإرادة المحركة لتفاعل هذه العناصر الأربعة التى عرضتها.

obeikandl.com

ولا ترتبط بالضرورة القدرة بالقوة.. فالقوة عنصر من عناصرها والقدرة تتأتى في بعض المرات حتى بالتنبه لحرب التاريخ.. وأتذكر أننا والهند والصين في مدة لا تقل عن ٧ أو ٨ سنوات كنا نقود برنامج الأمم المتحدة بأكمله وكانت الدول الكبرى تنتظر حركة هذه الدول الثلاث.

ليس الموضوع مجرد القوة فالقدرة بها عناصر كثيرة أخرى غير القوة المسلحة.. والخطأ هنا يقع مرات ويخلط بين عقل التاريخ وعدل التاريخ.. فالقدرة تفعل فعلها وتحرك التاريخ ولكن ليست بالضرورة أن تكون القدرة عادلة.

ولا أحد يستطيع أن يطلب منها العدل إلا بضمانات فالعدل قضية أخرى ويتعلق بشيئين.. إما باستعداد طالبى العدل أن يكونوا قادرين وإما بمجتمع دولى يعطى دورا للأخلاق وهو ضرورى في اعتقادى لكنى لا أظن أن أوله قد جاء وبالتالى ستظل القدرات فاعل أساسى في حركة التاريخ.. وعلينا أن ننظر للعدل ولا نربطه بالقدرة.

وعندما أقول عقل التاريخ وفي ذهنى أن الحوادث المتدافعة تدور وكأنها حوار ولما أطل على الحوادث التى تدور في هذه الفترة وحرب الاستنزاف دائرة ونحن نستعد لتحرير أرض وتحركات واسعة جداً من بداية العمليات للنشاط السياسى إلى التصعيد ثم إلى التفوق على الجبهة أو ذات مقدرة للعمل على الجبهة.

وإسرائيل ترد عليها بغارات العمق والأمريكان يعطيهم فانتوم.. ويفاجئ الجميع بأن هناك تغييراً في موازين القوة الاستراتيجية في الشرق الأوسط حدث في ليبيا وحيث لا يتوقع أحد.

وتستمر حركة التاريخ وكأنها حوار وكأنها سؤال وجواب وكأنها لعبة شطرنج بالفعل.. وهناك شيء ما وضرورات ما وقوى فاعلة تتحرك باتجاه ليس عشوائيا.. ودائماً ما يلفت نظرنا الصوت العالى للحوار ولا نتابع ما يجرى.

وأريد التوقف عند لحظة الحوار وكانت همسة لم يشعر بها أحد إلى حد كبير فما جرى في ليبيا وقدرته على تغيير الموازين خاصةً في البحر الأبيض.. والشرق الأوسط وخاصةً في العمق وفي الاتساع وفي الموارد التى أتاحتها المعركة وكل هذا لفت الأنظار لأنه صوت عال في التاريخ.

والغريب بعد ذلك جاء صوت آخر ولكن لم يلتفت إليه وهذا الصوت وقع في السودان في واقع الأمر.. وفي هذا الوقت بعد ليبيا والتصعيد وبعد المواقف الأمريكية.. فأرادت قوى أن ترد بشكل ما في الخرطوم وبشكل ما حدث شيء في الخرطوم كبير.

التفتنا إليه وقت حدوثه ثم ضاع عن السياق المسموع لحوار التاريخ في ذلك الوقت وأود التوقف عنده لعدة أسباب لأنه كان نبرة مهمة جداً في حوار التاريخ والشيء الآخر أنه تصادف أننى كان لى دور فيه وكانت تقريباً طريقة مباشرة أو غير مباشرة.. ولأننى لى دور كان أمامى مسودات الوثائق.. بقدر ما يتاح لى مثل الوثائق الأمريكية الإسرائيلية وحتى المصرية.

ولكن في هذا الحادث لم أجد فقط الوثيقة الخاصة بحركة التاريخ ولكن اهتممت فيما بعد بوجود مسودات.. ولولا هذه المسودات لم أكن لأسمح لنفسى بالتحدث في هذا الموضوع لأن دورى غير موجود في الوثائق.. لكن عملية صنع التاريخ أو صنع القرار كان لى دور بشكل أو بآخر.

نحن لا نتذكر كيف تسير حركة صنع القرار.. فحركة صنع القرار في اعتقادى من أصعب القرارات في الدنيا.. والذي يطل على حركة صنع القرار من الداخل لا يستطيع أن يتخيل كيف وصلنا لهذا القرار يبدو في النهاية مواد منتظمة بأوامر منتظمة.. بموازين منتظمة بقوانين منتظمة وبمعاهدات وبمواثيق دولية.

ولكن كيف صار هذا المنتج النهائى الذي وصل للناس بصورة مقبولة منظمة جاهزة يستغرب جداً.. وأتذكر مثل للسياسى الألمانى الكبير بسمارك.. وهو من أكبر الأسماء في السياسة الدولية لأنه مؤسس لهذا النظام العالمى الموجودين فيه وغير شكل أوروبا كلها وكان له كلمة أو وصف يستعمله فهو يقول إن عملية صنع القرار تشبه مصنع من مصانع "السجق".. وقال إنه عند دخول المصنع ستجد أشياء مثل اللحوم وأشياء مختلفة ودماء.. وفي النهاية ممكن بعد جهود يدخل في وعاء يقدم للناس ويأكلوه ويجدونه شهياً.

وبالفعل من يطل على صنع القرار سيجد التشبيه الذي قاله بسمارك صحيحاً للغاية لأنه يدخل على عملية صنع القرار أشياء مشوشة وفوضوية ولا أحد يتصور كيف تتجمع كل هذه الفوضى غير الخلاقة لتصنع نظام له شكل.

وأنا أذكر بهذه الواقعة المنسية لأنها جملة في سياق الحوار التاريخى وكان لى دور فيها.. وعندى لها مسودات القرار والسبب الرابع أنه لأول مرة يظهر الرئيس حسنى مبارك على شاشة الرادار.. بالنسبة لاهتماماتى شخصياً على مسرح الأحداث.. واهتممت بهذه الواقعة جداً.

وهذه الواقعة أريد بها أن ترد على بنى غازى والذي لم يستطع أحد مواجهته في بنى غازى أريد أن يواجه بنوع من العنف في الخرطوم.. وبدت الأحداث فقد سبق الثورة الليبية شيء وقع في السودان وهو تغيير كبير حدث أطلقوا عليه اسم ثورة مايو.

وأظن أن وقتها أنه كان لها علامة وتأثير ولكن لم يكن يضاهى بما حدث في ليبيا.. بسبب البحر الأبيض والبترول والقواعد الأمريكية الموجودة.. والموضوع أخذ صوته في حوار الحوادث وكان صوتاً مسموعاً وقوياً ومدوياً.. وما حدث في الخرطوم ولأنه بعيد جرى تسجيله بشكل ما لكن لم يقع الالتفات إليه لأنه لم يكن حدث مهما جداً.. وفي سياق الحوادث بعد ذلك أريد توجيه الضربة في حوار التاريخ الجارى وقبلها في موسكو كانت هناك خطط وبعد انتهاء زيارات موسكو والانتهاء من مشكلة غارات العمق تقريباً كان هذا هو التوقيت الذي وقع فيه (عبد الناصر) المشروع الأول لخطة جرانيت واحد التى فيها عبور.

وكانت السودان في ذلك الوقت عمقاً استراتيجياً مهماً جداً وهناك طيران كثير موجود.. وكانت أى ضربة للخرطوم في ذلك الوقت ردا على ما يجرى في حوار التاريخ.

وبدأ ما يجرى في السودان عملية انقضاض على ثورة السودان أو تمرد أو معارضة بالسلاح وبالعنف وبدت في وقتها وفي زمنها أنها بالفعل حركة في مجرى وفي حوار التاريخ.. وبدا (الإمام الهادى) المهدى وريث الحركة المهدية في السودان يدخل في مواجهة مع النظام ويتمركز في جزيرة أبا وهى معقل المهدية في ذلك الوقت ثم يوجه طلبات للرئيس السودانى في ذلك الوقت وكان صديقا لمصر وما قام به من ثورة مايو اعتبرت إضافة لحركة المقاومة العربية..

ووجه المهدى له الأنظار بتصفية ما قام به ويفرج عن المعتقلين من المهدية والإفراج عن السياسيين وهى عملية تقليدية للانقضاض على نظام انقلابى أو ثورى أو مشروع ثورى

وهذا هو السياق التقليدى.. وبعضه مشروع والبعض الآخر يبدو وكأنه مسنود من جماعات مسلحة.

وفى ذلك الوقت أتت أخبار أن (الإمام المهدى) يحشد من أنصاره (جزيرة أبا) ويحشد فى المناطق التى له فيها نفوذ خاصةً فى كردفان ودارفور قوات مقاتلين وأنهم على استعداد للزحف على الخرطوم وقيل إنه فى جزيرة أبا ٣٥ ألف مقاتل محتشد.. وأنه هناك عدد يماثلهم تقريباً موجودون يقتربون من منطقة مجرى النيل فى (أبا) وأنهم يستعدون للزحف على الخرطوم.

وفى ذلك الوقت كان الرئيس (نميرى) يقوم بجولة عند النيل وهو يعرف أن هناك مشكلات فى هذه المنطقة.. فأرسل لمقابلة الهادى.. ويستدعيه الأخير لمقابلته فى كوستى.. فقال له (النميرى) إنه على استعداد أن يجيئ له فى جزيرة أبا فرد المهدى ليضمن سلامته فى هذه الحالة واقترح عليه موعداً فى كوستى على مرجى النيل شرط أن تستجيب لكل المطالب التى نتحدث عنها.

وبدأت حشود الأنصار تخرج وتتدفق على مجرى النيل وتعبر النهر وتبدأ فى التقرب للخرطوم وتبدأ بالفعل بالقيام باشتباكات ويكون هناك خطر.. ويبدأ جعفر (النميرى) ومن معه من ضباط من مجلس قيادة الثورة يحولون المواجهة.. لكن المعارك بدأت وكان هناك قتلى وجرحى ثم يقترح (النميرى) أن تساعده مصر بأى طريقة وأن طريقة المساعدة تكون بترتيب الطائرات الموجودة فى الخرطوم أو من مصر وتضرب جزيرة أبا بالطيران وهو الحل الوحيد.. وأنه فى حالة عدم حدوث ذلك خلال أيام سيسقط النظام فى السودان.

وهنا وثيقة من وثائقه الرسمية وهنا برقية أرسلها السفير كمال خليل[1] من الخرطوم.. وقال السفير فى برقيته أن (النميرى) اتصل به الساعة الثامنة والنصف صباحا وطلب مقابلتى على وجه السرعة وأبلغنى أن أبلغ الرئيس فوراً بالآتى:

- أن الموقف فى الجزيرة أبا أصبح سيئاً.. وأن قوات الإمام المسلحة والتى تربو على(٣٥) ألف مقاتل استطاعت الخروج من (جزيرة أبا) والنفاذ فى قوات الجيش وقتل أعداد من الجنود.

(١) هو شقيق الدكتور مصطفي خليل الذي أصبح رئيساً للوزراء فيما بعد.

- أنه يريد إرسال قوات قاذفة للمعاونة على وجه السرعة وأن مجلس الثورة لا يستطيع السكوت على هذا الوضع الآن.
- أنه أبلغ ملحقنا العسكرى قبل حضورى بالوضع العسكرى الذي تم حتى الآن.

وكانت ملاحظات السفير أن (النميرى) كان في حالة إعياء وكان يركز على أهمية إرسال الطائرات.. والموقف بعد اختراق قوات الإمام لقوات الجيش خارج الجزيرة بالاضافة لعددها الكبيرة والأسلحة التى معها.. وقلة القوات المكلفة بمواجهتها يجعل الموقف خطرا حيث وجهة قوات الإمام هى الخرطوم.

كُلفت ثلاث طائرات ميج (٢١) يقودها طيارين سوفييت بضرب قصر الإمام بالجزيرة واختراق حاجز الصوت فوق قوات الإمام.

وعندما جاءت هذه البرقية أحدثت حالة استنفار شديدة جداً في القاهرة وكان هذا مهماً.. ولكن ليس بأهمية ما جرى في ليبيا وكأن ما حدث رد على الثورة الليبية وأن حركة التاريخ تحركها القدرة بصرف النظر عن الأخلاق.. وتعمل عملها وتحاول أن تلغى مكاسب قد تحققت في مرحلة.. وفي مكان تلغيها في مرحلة أخرى وفي مكان آخر ضمن حوار التاريخ المستمر وبالعقل بصرف النظر عن العدل.

وكانت ردة الفعل الطبيعية القلق على الخرطوم.. وكانت التعليمات بالقاهرة وأبلغها السفير في الوثيقة.. وطلب مقابلة (النميرى) لإبلاغه رسالة (عبد الناصر).. ونص الرسالة كالآتى:

الأخ العزيز (النميرى).

تلقيت رسالتكم وإنى على أتم استعداد لإرسال كل ما تطلبونه بدون تحفظ وأصدرت تعليمات بأن تتواجد الطائرات وهيئة عمليات مصغرة فجر اليوم بالخرطوم لتكون تحت تصرفكم ولديهم تعليمات صرحية لتنفيذ أوامركم بالكامل.

قائد المأمورية المصرية – وهو الرئيس محمد حسنى مبارك فيما بعد- يحمل تعليمات منى سيعرضها عليكم فور وصوله للخرطوم.. وأطيب تمنياتى راجياً من الله أن يوفقنا وإياكم في جميع معاركنا التى نخوضها من أجل الحرية والاشتراكية والوحدة.

والذي عرفته فيما بعد أن (جمال عبد الناصر) كان يحركه في ذلك عدة أشياء..هي كالتالي:

- كان قلقاً للغاية على موقع الخرطوم.. ألا يضيع..
- وقلقاً من أن يقود الروس طائرات قد لا تضرب.. ولكنها قد يكون لها صوت في الظرف الدولى الذي كنا فيه ونتذكر قبلها الزيارة السرية لموسكو..
- وهناك خبراء سوفييت يأتون لنا وخبراء في الداخل وهم تولوا مسئولية الدفاع عن العمق وتوقفت غارات العمق أو كانت على وشك التوقف في ذلك الوقت.
- وأن يظهر طيارون سوفييت في ذلك الوقت يقودون طائرات عربية بصرف النظر عن اتجاهها سواء بضرب الجزيرة أبا أو أنصار مهدى..

كل هذا كان بالنسبة له وضع يؤدى إلى تصاعد خطير جداً ويؤدى إلى نكسة.. وظهور الروس لم يكن صحيحاً وقد ناقشت الوضع.. واعتقد أنه بالغ فيه.

وحدث وتحرك الموقف.. وقرر (جمال عبد الناصر) فعلاً إرسال بعثة عسكرية للتدخل في اليوم التالى.. وفي ذلك الوقت رأى (عبد الناصر) أن يدعم مهمة البعثة العسكرية التى ذهبت كمجموعة مقدمة ترتب العمليات وتستعد للعمليات وفيها قاعدة يقودها طيران واضح.. والرسائل تأتى في مسودات بعد ذلك واضحة أن الاستعداد لعملية ضرب جماهير بصرف النظر عن القيادات وكان موضوعا كبيرا.

وكان (عبد الناصر) يرى إرسال المجموعة العسكرية.. ومعه نائب الرئيس وهو أنور السادات والسيد أمين هويدى مدير المخابرات العامة.. واتصل بمعمر القذافي لتكون المهمة مشتركة للدفاع عن الثورة السودانية المهددة في الجنوب.. ويكون الدفاع مشتركاً بين الدول الموجودة والتى كانت تسمى نفسها دول طرابلس والتى اجتمعت كثيراً وهى مصر والسودان وليبيا.

وكان القذافي متحمساً للدفاع عن الثورة السودانية.. وأنه على أى حال مع نائب الرئيس المصرى سيرسل نائبه (عبدالسلام جلود) بحيث يكون الجميع بعثةً عسكرية لتباشر تنفيذ العمليات صباح اليوم التالى.. وتكون هناك بعثة سياسية فوقها تحاول أن تدير وجهتها سياسياً.

اللقاء الأول بين السادات ومبارك

وأظن أنها كانت أول مرة يتلاقى أنور السادات وحسنى مبارك في مهمة من نوعٍ ما.. ولولا أننى معى المسودات لم أكن لأجرئ وأتحدث عن ما جرى ولكنى أعرف وأستند لأشياء تسند ما أقوله.

وفي ذلك الوقت مساء كنت عند (عبد الناصر) لأمرٍ ما آخر.. وكنت أتابع ما حدث في السودان.. وكانت عناوين صحفنا في اليوم التالى تتحدث عن هذا الموضوع.. ولم تكن لديَّ أدنى فكرة.. وتحدث معى (عبد الناصر) عن التطورات التى جرت في السودان.. وتحدث مع الرئيس نميري هاتفياً وأنا لديَّ نص مكالمة الرئيس لأن كل مكالمات الرئيس الخارجية تسجل.

وكانت مكالمته مع (النميرى) صريحة للغاية في الهاتف.. وقال له نحن وراءك.. وأعطيت أمراً لكى يضرب الطيران ضربته غداً.. وتأتى التقارير.. وكان محرز مدير المخابرات السودانية على اتصال مع حسنى مبارك.. وتلقى منه التقارير خطوةً بخطوة.

وعندما سمعت من (عبد الناصر) تهولت الموقف.. بأن يتأثر في قراره بما يسمعه من آراء مخالفة له.. وأن يعاند مع التاريخ ويسد أذنه لأى نصيحة.. وليس معناه أنه يعاندنى أنا ولكن مع حوار التاريخ.

وقلت لـ (عبد الناصر): لدى عدة تحفظات.. بعدها أجد أن (عبد الناصر) يبلغ سامى شرف بإلغاء تعليمات الضرب.. ويبلغه ويقول له إن (هيكل) له رأى مختلف.. ورأى هذا الذي قلته من حسن حظى أن يستمع إليه.. وأن يجد من يتقبله بقدرة رجل دولة.. ووجد من يتصرف ويضعه في اعتباره وهو يتصرف.

وقلت له وقتها أنا لا أتصور ذلك.. ولديَّ مليون ملاحظة.. أولها أنه إذا ضربت الطائرات المصرية أى جماهير سودانية في أى موقع فإن هذا (دماء) بين الشعبين المصرى والسودانى وأخشى أنه سوف يؤثر على العلاقات بين الشعبين إلى أبعد مدى يمكن تصوره.

ومنطقة منابع النيل ومنطقة مجرى النيل.. ومنابع النيل سواء الأفريقية أو مجرى النيل في السودان أو الهضبات الإثيوبية.. هذه مناطق لنا فيها مصالح حيوية وأنت تعرفها ولست في حاجة لأن أقول ذلك لك.. ثم إن هذه المنطقة يستحيل القيام فيها بعمل

عسكرى فمنابع النيل.. وممرات النيل تمر وتتقاطع في سبع دول وهذه مناطق وعرة جداً وبعيدة جداً ونائية جداً وواسعة جداً ومصالحنا فيها حيوية وقوتنا فيها محدودة.

فإذا أدخلنا القوى العسكرية في هذه اللحظة ونزلت على أبا أو غير أبا فأنا أعتقد أننا نقوم بعمل خطير جداً.

والشيء الآخر أننا وفي موقف الأمم المتحدة ونحن لنا قضية تعسف في استعمال القوة وإسرائيل معززة بالقوة الأمريكية.. وإذا لجأنا في موضوع متعلق بحركة القومية العربية والشعوب العربية ومطالب داخلية سواء كانت لها حق أم لا واستعملنا قوة عسكرية فنحن نقدم للآخرين موقفاً معادياً لنا على صينية من ذهب.

ورأى بعض قادة الأنصار أن (الإمام الهادى) قد يخرج من مناطق نفوذه ويذهب قرب كردفان ودارفور لكن يذهب على مناطق مثل مناطق الشرق في كسلا وبالفعل خرج الإمام وذهب في اتجاه كسلا ولما خرج الإمام وعرف أنه خرج وبدأ الجيش السودانى يضرب أنصار المهدى بالمدافع ويتصرف بأى طريقة ولكن بعيدة عن الجيش المصرى.. وهناك فرق بين أن يتدخل الجيش السودانى ولو حتى خطأ أو تعسف لكن أن يتدخل سلاح مصرى قضية أخرى والحمد لله أنه تم استبعادها.

وما حدث بعد ذلك أن (الإمام الهادى) اتجه ناحية كسلا وهناك حدث شيء غريب.. وهو أن (الإمام الهادى) قدمت له سلة فاكهة وأعتقد أنها كانت مانجو.. وكانت ملغمة.. وقُتِلَ.. وأظن حتى هذه اللحظة لم يُعرف من هو قاتله.. وإن كان بعض الإخوان في السودان شطح بهم الجموح لكنهم كلهم يعرفون أنه ليس هناك مصريون مشتركون في هذا وبقية جريمة غامضة أضيفت لجرائم غامضة أخرى.

واستطاع الجيش السودانى بعد ذلك اقتحام أبا لكن هذا موضوعاً آخر.

وأرسل (النميرى) بعد ذلك جواب شكر لـ (عبد الناصر) وكان هناك جدل عن وجود شيوعيين.. وعندما قرأت الجواب أقريت أن هناك شيوعيين بالفعل وذلك من خصائص الخطاب العقائدى عندما تُقالُ كلمة **(أيها الرئيس)**.

❖❖❖